— ٣ —

يبقى بعد ذلك كله شيء تستكمل به الصورة – صورة النثر الفنى فى الجاهلية وعصر البعثة النبوية – وهما فى رأى الدكتور زكى مبارك عصر جاهلي واحد – تلك الصورة التى بدت عنده كاملة لايكاد ينقصها شيء ، فليس الأدباء لهذه الفترة عنده شعراء وحكماء وخطباء ، وإنما هم أيضاً كتاب رسائل فى أوسع نطاق ، كما كانوا منذ قليل أصحاب مؤلفات نثرية . ويبدو أن الدكتور زكى مبارك لايرى الأشياء إلا بمنظار مكبر ، يضخم القريب ، ويقرب البعيد ، بل إنه ليضخم البعيد نفسه أيضاً ، ومع هذا فإن الصورة عنده منسجمة متلائمة وإن كانت صورة ضخمة لا تتفق مع الواقع فى مساحتها وحجم المرئيات فيها ، إلا أنها احتوت على أشياء لمست جوانبها جميعاً يد التكبير والشد والتضخيم دون أن تترك منها جانباً . ولنمض معه إذن لنراه يقول :

« بل إنى لأذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الحركة الأدبية والسياسية والاجتماعية عند النبي لم تصور إلى الآن بصورتها الحقيقية ، فهذا رجل غير أمة كاملة فى عشرين عاماً ولقيت دعوته آلاف المصاعب ! أفيمكن حقاً الاقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب ، وأن أنصاره لم يقولوا من الخطب والرسائل إلا ما نقله عنهم الطبرى وغيره من المؤرخين ؟ . . أفيعقل أن تمر حركة كهذه من دون أن تهب فى وجه صاحبها ألسنة الخطباء